القدر والقصص

[بمناسبة شقاء أشخاص روايتين]

للأستاذ عبد المجيد مصطفى خليل

في عام ١٨٥٠ قدمت شارلوت برونتي Charlotte Brontë الطبعة الثانية من قصة أختها إميلي برونتي Emily Brontë المسماة مرتفعات وذرنج Wuthering Heights بمقدمة جاء فيها :

« لا أدري أكان صواباً أو ملائماً أن تخلق كائنات مثل هيثكليف(1) ، ويصعب أن أظن ذلك ، لكنني أدري أن الكاتب الذي يملك الموهبة الخالقة يملك شيئاً لا يسيطر دائماً عليه – شيئاً يريد ويعمل لنفسه بغرابة أحياناً ، فقد يضع « الموهوب » قواعد ويبتكر مبادئ ، ثم ترقد « موهبة الخلق » أعواماً في خضوع لهذه القواعد والمبادئ ؛ وعندئذ ، ومصادفة وبغير إنذار بالثورة ، يجيء وقت لا تعود تقبل فيه أن « تسلف الأودية ، أو تربط رباطاً في خط المحراث(2) » – حين « تضحك من زحام المدينة ، ولا تهتم بصياح الحوذي » – حين ترفض كل الرفض أن تصنع من رمل البحر حبالاً لحظة أخرى ، وتشرع تنحت التماثيل فتجد « أنت » صورة من بلوتو أوجوف A Pluto or a Jove(3) وتيسيفون أوسيكي A Tisiphone or a Psyche(4) ، وحورية ماء أو مريم العذراء A Mermaid or a Madonna(5) ، كما يوجه القدر أو الإلهام . وليكن العمل عنيداً أو مجيداً ، مفزعاً أو سماوياً ، فإن لك اختياراً ضئيلاً متروكاً ، غير أنه اختيار هادئ ساكت . أما أنت أيها الفنان الاسمي « الصوري » فإن نصيبك منه كان أن تعمل مستكيناً بإرشاد لم تفهمه ، ولا استطعت أن تستوضحه – إنه لا يلفظ في صلاتك ، ولا يلغي أو يغير على هواك . فإن كانت النتيجة خلابة ، فسيمدحك العالم أنت الذي تستحق من المدح قليلاً ؛ أما إن كانت تشمئز النفس منها ، فإن العالم نفسه يلومك ، أنت الذي تستحق من اللوم قليلاً كذلك »

وفي عام ١٩٣٠ قدم هـ . و . جَرُد H. W. Garrod لطبعة هذا العام من هذه القصة ، بمقدمة أيد فيها شارلوت في تفسير قسوة القصة بالقضاء والقدر أو الإلهام ، قال :

« إذا لم يمكن وصف قصة مرتفعات وذرنج بأنها أعظم قصة « غير مسرحية » في لغتنا ، فإن لها على الأقل أن تدعونا بعدل إلى اعتبارها أصدق قصصنا إلهاماً(1) ؛ وقد أحسنت شارلوت برونتي كشف قوتها العجيبة إذ تكلمت على « القدر أو الإلهام » (إلى أن قال) : ليست الطبيعة ، بل القدر ، يبدو أنه أخذ القلم من الكاتبة ، وكتب لها . (حتى قال) : لو كان مدبر القصة شيئاً أقل من « القدر أو الإلهام » لكانت سفينتها غرقت وسط متاعب الأنانية »

هكذا قال مقدماً القصة الغريبة الرفيعة . ولم يكن يسع شارلوت الموهوبة الملهمة إلا أن تتأمل غرائب القصة وسببها الدافع وإلا أن تجد أنه القدر . أما الإلهام فمن القدر . ولم يكن يسع « جَرُد » إلا أن يُعجب بهذا التوفيق إلى تفسير سبب هذا العمل الأدبي الطافح بالقسوة والغرابة ، وإلا أن يؤيده ويكرره في راحة وسرور

ولو لم تتكلم «شارلوت» و «جرد» عن عمل القدر في هذه الرواية لكان جديراً بنصف قراء هذه القصة أن يتساءلوا مستنكرين : لماذا قسمت حظوظ شخصيات هذه القصة كما قسمت ؟! ولماذا نجح الشر فيها كل ذاك النجاح ؟! ولماذا شقيت شخوصها الطيبة ما شقيت ؟!

طالما كثيراً من المآسي فلا أذكر أني عجبت من المؤلف عجبي من إميلي برونتي وأن تكن قصتها المحشودة بالمآسي ليست في قالب المأساة

(1) اسم شخصية في القصة ، وهي شخصية بغيضة جداً . وكانت موفقة في الشر إلى حد بعيد .

(2) سلف الأرض أي سواها بالمسلفة أو حرثها للزرع .

(3) الأول إله الجحيم عند الرومان ، والثاني كبير الآلهة عندهم .

(4) الأولى إحدى إلهات ثلاث للقضاء والقدر والانتقام في الأساطير الأغريقية وكن ثعبانيات الشعر . والثانية في أساطير الأغريق هي الروح المجسدة ، أو النفس والروح الإنسانيتان ، أو العقل الإنساني .

(5) حورية الماء في الأساطير كانت امرأة إلى الخصر ، بارعة الحسن ، ثم ينتهي الجسم بذنب سمكة . وكان يمكن أن توجد علاقات بينها وبين الإنسان . لكن هذه العلاقات كانت تجلب المكاره غالبا .

(1) مكتوب على « باكت » غلاف القصة أنها لو كانت في قالب مأساة « تراجيديا » لكانت أسمى قطعة للقوة والعاطفة والطبيعة البشرية ، على الذوق الجاف ، منذ شيكسبير Oxford, 1936 .

الناس يشقون بمكتوب القدر ، ويسألون الله اللطف والرحمة ؛ وقد يتعجبون فى تسليم من الحكمة الخفية كيف تكون . وقد يستغربون وجود غاية مجهولة معقولة لأن عقولهم لا تعنى فى هذه القضية بغير إيمان ثابت . فقد يسأل القارئ بعد تلاوة هذه المأساة وأمثالها : أما كفى المؤلف شقاء الناس فى الحياة فيشقى شخوصه فى الورق والخيال وهى من صنع يده لولا أن قدر الحياة يتدخل فى قدر الخيال ! إنه لا يجوز أن تشقى هكذا تلك الأحياء الخيالية الطيبة . فإن جاز شقاء شخوص روائية فحين يصف مؤلف أشخاصاً حقيقيين فى قصة وصفية غير وضعية إلا أن يكون المؤلف قاسياً وحشياً

ويظهر أن خروج هذه الرواية للسينما راعى شيئاً من ذلك ، فرأيناها خلواً من شر ما فيها من شذوذ وقسوة . وإن يكن قد شوهها بالبتر والاقتضاب والتعديل

هذا ، وقد كان كلام شارلوت على القدر والإنسان والاختيار المتروك له ، وهو مناط الكسب ، كلاماً صائباً يوافق فى عمومه رأى السيد جمال الدين الأفغانى فى مقالة « القضاء والقدر »[1]

* * *

وفى « عهد الشيطان » الأستاذ توفيق الحكيم أقصوصة عنوانها « الأميرة النضي » . وهى « بريسكا » بطلة قصته « أهل الكهف » . والمؤلف يحاور بطلة قصته بهذا الحوار الذى طرق به موضوع القدر :

— قل لى أنت قبل كل شىء : ماذا عليك لو أنك أبقيت لى مشلينيا ؟ ... لو أن قلمك تمهل لحظة قصيرة ولم يقصف تلك الحياة لكنك ضننت بها أيها القاسى الظلوم !

— لست قاسياً يا سيدتى ولا ظلوماً . ولو كنت أملك أمر بقاء مشلينيا دقيقة واحدة لأبقيته لك عن طيب خاطر

— لو كنت تملك ؟ ومن غيرك يملك ؟

— لا تحمليني يا سيدتى هذه التبعة !

— جميل أن يتنصل خالق من تبعة خلقه كل هذا التنصل !

— آه ، ما أظلم الإنسان ! وما أحوج الخالقين إلى الرحمة والرثاء فى هذا الوجود

— نحن الظالمون وهم المظلومون ... شىء بديع !

— إنكم تحملونهم التبعات وترمونهم بالظلم ، وهم براء من كل صفة من هذه الصفات . فلا ظلم ولا عدل ، ولا قسوة ولا حنان ، ولا غضب ولا رضى ، تلك عواطف لا يعرفونها ولا يشعرون بها . ولو أصغى إله لصوت آدمى لا نحل الكون فى طرفة عين ، كما تنحل قصة أهل الكهف لو أنى أصغيت إلى شخص واحد من أشخاصها ! فأنت تريدين أن أؤخر موت مشلينيا دقيقة ، ولا تعلمين أن هذه الدقيقة الواحدة كانت كفيلة أن تغير وجه القصة وتقلب مصير الأشخاص وتلقى عناصر الفوضى فى العمل كله . كلا يا سيدتى . إنى لم أرد موت مشلينيا ولم أرد بقاءه ، ولم أحب ولم أكره ، ولم أظلم ولم أعدل ، إن الخالق لا يمكن أن يخضع لغير قانون واحد : « التناسق »[2]

فكيف لا يعرف الخالق الذى يحدثنا عنه الأستاذ الحكيم الظلم والعدل والقسوة والحنان والغضب والرضى وهو الذى خلقها ؟ ! وكيف لا يشعر بها وهو يتصف بأكثرها ؟ أو أن هذا الذى يصفه الأستاذ طراز من الخالقين طريف : اختصاصه الأبدان وليس من اختصاصه العواطف !

وكيف يجهل هذا الخالق المفاجآت ولا يحسب حساب الظروف وطارئ الطلبات ، والمخلوقات يعرفونها ويعدون لها ما استطاعوا من عدة ؟! أفينجل الكون العظيم لو أجاب الخالق دعاء إنسان يطلب شيئاً معقولاً هيناً على القدرة الإلهية ؟ !

وما عزاء المتدين عن مصائبه إذا لم يكن له أمل فى رحمة الخالق وفى نعمة الجنة ؟ إذن ما أضيع المخلوق !

وما هذا التناسق الغريب الذى لا يكون إلا مركباً من نسبة من الشر لا تنقص ؟ ! فكيف إذن يكون الحال فى الجنة التى لا شر فيها ، ألا يكون فيها تناسق ؟ ! كذلك القصص التى ليست مآسى ، هل انعدم التناسق فيها ؟ ! فإن يكن المراد « التناسق الذى يقتضيه الحال » فأين إرادة الخالق واختياره ؟ ! وكيف يكون خالقاً من ليست له إرادة ولا اختيار ولا تدبير فيسيطر عليه المقام والسياق والاتفاق ! فقد يسوقه التناسق فينساق فيكتب فى لوح القدر تراجيدية أو دراما أو كوميدية .. ثم هو بعد ذلك خالق وله قدر !

* * *

(١) ص ٧٠ — ٧٢ ، ١٩٣٨

(٢) العروة الوثقى ص ١١٩ — ٢١ ، بيروت ١٩٣٣